سبعة من كتب الغزالي الـ 70 (الجزء الأول)

كانت حياة الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله، ثرية مليئة بالعطاء والحيوية، وبالجهد الذي لا يكلّ في الدعوة إلى الله تعالى؛ سواء بالكلمة الطيبة، أو بالحركة بين الناس، أو بالقلم والتأليف..

وللشيخ رحمه الله أكثر من سبعين كتابًا، بدأت بكتاب "الإسلام والأوضاع الاقتصادية" (عام 1947م)، وختمت بكتاب "كنوز من السنة"، الذي طُبع بعد وفاته في 9 مارس 1996م.

وهذه الكتب الي تربو على السبعين تتنوع.. لتشمل مجالات متعددة من العلوم الإسلامية، من العقيدة والتفسير والسنة والسيرة والأخلاق والدعوة.. وتواجه تحديات كثيرة في واقعنا، من التغريب والتنصير والاستشراق والعلمانية.. وتتماس مع هموم الدعوة والداعية والنقد الذاتي للعاملين للإسلام.. وهي جميعًا تمثل مكتبة متكاملة، وتأخذ بيد المسلم نحو فهم صحيح للإسلام؛ تنير وعيه، وتضبط عاطفته، وترشِّد سعيه..

وفي ذكرى مولد الشيخ الغزالي (22 سبتمبر 1917م)، ومن بين تراثه الفكري الذي تجاوز السبعين كتابًا، نود أن نشير بصفة خاصة إلى سبعة منها، تمثل وتوجز أهم معالم مشروعه الفكري الثري؛ وهي:

- فقه السيرة.

- مع الله.. دراسات في الدعوة والدعاة.

- نظرات في القرآن.

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية.

- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين.

- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث.

- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم.

ومن أراد البداية والإيجاز المكثف، للتعرف على "التراث الغزالي"، فيمكن أن يبدأ بكتابه "مشكلات في طريق الحياة الإسلامية".

وفي هذه السطور نعرِّف بإيجاز شديد بهذه الكتب السبعة، لعل ذلك يحفِّز للاطلاع على المزيد من هذا الفكر الرائد المتميز.

فقه السيرة:

وهو كتاب يتناول السيرة النبوية، ويقف معها وقفات تأمل وتدبر، بعيدًا عن السرد الجاف، أو المتعة المعرفية المجردة.. مع عناية بتصحيح الروايات عن بعض الوقائع، ووَضْعِها ضمن رؤية كلية تنصف السيرة النبوية، وتخلِّصها من النظرة الجزئية.. وذلك بهدف إبراز حياة النبي ﷺ باعتباره الأسوة والقدوة الحسنة باستمرار.. مع التعبير عن ذلك كله بأسلوب أدبي مشرق، وعاطفة قوية..

يقول الشيخ رحمه الله: "**إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة قشورًا خفيفة، لا تحرك القلوب ولا تستثير الهمم،** وهم يعظّمون النبي ﷺ وصحابته عن تقليد موروث ومعرفة قليلة، ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان، أو بما قلّت مؤنته من عمل"([1]).

ويؤكد أن: "**معرفة السيرة على هذا النحو التافِه تُساوي الجهل بها.** إنه مِن الظلم للحقيقة الكبيرة أنْ تتحول إلى أسطورة خارقة، ومن الظلم لفترة نابضة بالحياة والقوة أنْ تُعرَض في أكفان الموتى. إن حياة محمد ليست- بالنسبة للمُسلم- مسلاة شخصٍ فارغ، أو دراسة ناقدٍ مُحايد؛ كلا كلا، إنها مصدرُ الأسوةِ الحسنة التي يَقتفيها، ومَنْبع الشريعة العظيمة التي يَدين بها. فأيُّ حيف في عرض هذه السيرة وأيُّ خلط في سرد أحداثها، إساءةٌ بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه"([2]).

ويبين الشيخ أنه بذل وسعه ليبرز هذه الصورة الصحيحة عن السيرة؛ فقال: "وقد بذلت وسعي في إعطاء القارئ **صورة صادقة عن سيرة رسول الله**ﷺ، واجتهدت في **إبراز الحِكم والتفاسير** لما يقع من حوادث، ثم تركت للحقائق المجلوّة أن تدع آثارها في النفوس دون افتعال أو احتيال. وقد استفدت من السير التي كتبها القدامى والمحدثون استفادة حسنة"([3]).

ويضيف: "**إنني أكتب وأمام عيني مناظر قائمة من تأخر المسلمين العاطفي والفكري؛** فلا عجب إذ قصصت وقائع السيرة بأسلوب يومئ من قرب أو بعد إلى حاضرنا المؤسف، كلما أوردت قصة جعلتها تحمل في طياتها شحنة من **صدق العاطفة وسلامة الفكر** وجلال العمل، كي أعالج هذا التأخر المثير"([4]).

ويبين أن المسلم الذي لا يعيش الرسول ﷺ في ضميره، ولا تتبعه بصيرته في عمله وتفكيره، **لا يغني عنه أبدًا أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم والليلة**([5]).

مع الله.. دراسات في الدعوة والدعاة:

وهو كتاب يتناول ما يتصل بالدعوة والدعاة في الأبعاد المختلفة، من حيث التكوين العلمي والعملي، وكيفية النهوض بهما.

يقول الشيخ في مقدمته: "هذا عنوان يوحي باديَ الرأي أن الكتاب يتضمن معاني كثيرة من ذلك اللون من الخشوع.. أو دعوات مُحتبسة ترسلها عاطفة مُلتاعة.. إن الكتاب ليس هذا ولا ذاك! **إنه مع الله على نحو آخر**، نحو يدرج مع الإنسان في واقعه المشحون بالحركة، ويلتصق به في دنياه الطافحة بالنزاع. وهو **يحرس الإيمان في تلك الميادين العملية**، ويتابع خَطوَه هنا وهناك ليطمئن على **سلامة الوجهة واستواء الطريق"**([6])**.**

ويضيف: "هذا الكتاب للدعاة وليس للعامة، ألّفته لهم ودرّست جملة من أبوابه معهم؛ ذلك أن مشيخة الأزهر رأت- مشكورة- أن أحاضر في تخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين، وأن ألقي على الطلاب كلمات في (الدعوة إلى الله)، وفق منهج مرسوم؛ وقد صادف هذا الكتاب هوى في نفسي فنشطت للنهوض به"([7]).

ويؤكد رحمه الله أن: "**تكوين الدعاة يعني تكوين الأمة؛فالأمم العظيمة ليست إلا صناعة حسنة لنفر من الرجال الموهوبين**، وأثرُ الرجل العبقري فيمن حوله كأثر المطر في الرض الموات، وأثر الشعاع في المكان المتألق"([8]).

ثم يرسم الشيخ طريق النهوض بالدعوة فيقول: "ومن هنا، أرى أن سبيل النهضة الناجحة لا يتمهد إلا إذا استطعنا بناء جماعات من **الدعاة المدربين البواسل**، ينطلقون في أقطار العالم الإسلامي ليرأبوا صدعه، ويجمعوا شمله، ويمسّكوه ويبصِّروه لغايته، ويتعهدوا مسيره، ويقوِّموا عوجه، ويذودوا عنه كيد الخصوم، ومكر الأعداء، وعبث الجهال، وسَفاه المفتونين"([9]).

ويبين أن: "**الإسلام أحوج الأديان الآن إلى من يتعلمه على حقيقته النازلة من رب العالمين**، ثم يكرس حياته لإنعاش المسلمين به، بعدما سقطوا في غيبوبة طويلة عِلّتُها الأولى والأخيرة الجهل الطامس البليد. الإسلام أحوج الأديان إلى الدعاة الذين يغسلون عنه ما التصق به من خرافات، ويُقْصُون من طريقه الحواجز التي شَعَّبَتْ أهله، وقسمتهم طوائف، ومذاهب.. **الإسلام فقير إلى رجولات متجردة تهب حياتها لله، وتجعل مماتها فيه، متأسية بالإمام الأعظم** الذي نزل على لسانه {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ} (الأنعام: 162، 163)"([10]).

ويختم الغزالي مقدمة الكتاب بالقول: "**سيكون هؤلاء الدعاة طلائع النور**، في أمة طال عليها الليل، وبوادر اليقظة في أمة تأخر بها النوم... ولا بد للحفاظ على حياتنا، والإبقاء على تراثنا، والنجاة من عدونا، أن نعود سراعًا إلى إسلامنا جملةً وتفصيلاً؛ لنكون مع الله، ويكون الله معنا. وعبء هذا العمل على الدعاة الأذكياء الأتقياء، الدعاة الذين ألَّفت لهم هذا الكتاب"([11]).

نظرات في القرآن:

والشيخ الغزالي رحمه الله له اهتمام كبير بالقرآن الكريم، من حيث إبراز مقاصده وكلياته ومحاوره الأساسية، بعيدًا عن التناول الجزئي والمتشعب- لغويًّا وفقهيًّا- كما في التفاسير المشهورة..

وفي هذا الكتاب جمع الشيخ "جملة معارف حسنة عن القرآن المجيد، تضمنت ثمرات من غراس الأئمة الأقدمين والعلماء المحدثين، وشدها جميعًا نظام يوائم الأسلوب الذي استحلاه المثقفون اليوم، وألفوه في مجالي العلم والأدب"([12]).

ويضيف: "لم أنسَ- وأنا أكتب- أن أمس قضايا دينية واجتماعية تشغل بال المسلمين خاصة، وبال العالم كله. فإن العلم المعزول عن الواقع لا سبيل له في قلبي ولا في لبي"([13]).

ويؤكد الشيخ أن "**القرآن نفسه كتاب لا يُستطاع عزله عن الحياة أبدًا.** وهل نزل إلا ليخطِّئ أو يصوِّب من أفكارها؟ وإلا ليمحو أو يثبت من أحوالها؟ **إنه كتاب الحياة المفعمة بالحركة المتجددة على الدهر**، ولكنها الحياة القائمة على الحق، الدارجة على الصراط المستقيم"([14]). ويبين حاجتَنا الماسة إلى الانتقال من (حفظ القرآن) إلى (تدبره ووعي مقاصده وتوجيهاته)، ونشر ذلك بين عموم المسلمين، فيقول: "إن سياسة تحفيظ القرآن بحاجة ماسة إلى مراجعة، كي ما تحقق الغاية النبيلة منها؛ فنحن نريد بقاء التواتر الذي وصل به هذا القرآن إلينا حتى يصل كذلك إلى الأجيال التي تخلفنا، ولكننا نريد كذلك ألا تلتف حول القرآن هذه الجماهير المتآكلة به، النازلة عن خُلقه، المنحرفة عن طريقه، التي تستوعب أحرفه تجويدًا وترتيلاً، ولا تعي من وصاياه شيئًا يرفع رأسها أو يزكي نفسها!"([15]).

([1]) فقه السيرة، ص: 4.

([2]) ص: 4.

([3]) ص: 4.

([4]) ص: 5.

([5]) ص: 6.

([6]) مع الله.. دراسات في الدعوة والدعاة، ص: 3.

([7]) ص: 6.

([8]) ص: 6.

([9]) ص: 7.

([10]) ص: 7.

([11]) ص: 7، 8.

([12]) نظرات في القرآن، ص: 3.

([13]) ص: 4.

([14]) ص: 4.

([15]) ص: 5.